أبو علي بن سينا

أخلاق الطبيب



أخلاق الطبيب

أبو علي بن سينا



أخلاق الطبيب

أبو علي بن سينا



دار المسترسل العربيِّ

تصميم الغلاف: عمر الحجّ.

نسخة دار المسترسل العربيِّ عام 1445 هـ.

توفِّيَ المؤلف عام 428 هـ.

الفهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

دعاء وثناء

بَلَغَني — أمتع الله بك وبالنعمة فيك — أنَّه دعاك الأمير فلان إلى حضرته، واختصَّك لخدمته، معتمدًا في ذلك عليك، وملقيًا بأسبابه إليك. وقد أحسنَ الظن بك مَن اختصَّك لنفسه، واعتمد عليك مَن جعلك أمين روحه. وفَّقك الله لما ندبك إليه من خدمته، ورعاية حقوقه، وحفظ صحته، إنه سميع قريب.

أصعب ألوان الطب

اعلم أنه مِن أصعب الأشياء للطبيب: خدمة الأمراء ومعالجة المترفين والنساء. فإن الطبيب الحر السيرة إذا اشتغل بصناعته، وحفظ الخاصة والعامة، فإنه يعيش بخير، ويكون عليهم أميرًا، وإذا توسَّم بخدمة الملوك ربَّما صار بخدمتهم أميرًا؛ لا سيَّما إذا كان الملك عامِيًا. كما أني سمعت أن بعضهم أصابته علة، فأمره الطبيب بالحمية وهو يأباها، وقال: ما أصنعُ بالطبيب إذن إذا منعني المشتهى؟! وإنما اصطنعتك لنفسي، لِآكل ما أريد، وتدفع بعلمك عنِّي ما أكره من مضرته؛ ولم يكن يعلم أنه مِن المحال مثل هذا المقال. وأنه ليس في قوة صناعة الطبيب، وأن الأطباء عاداتهم عادات الأمراء، وأمورهم نافذة على الأغنياء والفقراء؛ لأن من عاداتهم أن يأمروا، وليس من عاداتهم أن يؤمروا.

صيانة الطبيب نفسَه

فأول ما يجب عليك: صيانة النفس عن الاشتغال باللهو والطرب، والمواظبة على تصفح الكتب، فعساه أن يسألك عن شيء بغتة، ولا تحفظه، فتحسر عليك الإجابة، فيضرك ذلك عنده.

ثقافة الطبيب

فإن من الأمراء والملوك والرؤساء من يكون عاميًا، ومن الأكابر من يصادف أَمِّيًّا، فيحسبون — بقلة علمهم وكثرة جهلهم — أن كل من نُسب إلى علم فهو خليق بأن يجيب عن كل ما يُسأل من ذلك العلم؛ فإن غَبِيَ بمسألةٍ، فإنهم ينسبونه إلى الجهل. وليسوا يدرون أنه ربما أصاب الأخرقُ، وأشوى الحاذقُ، وربما أشكل على العالم النِّحرير المسألةَ التي يجيب عنها أقلُّ تلامذته علمًا، وأحلهم فهمًا، لا أنه ليس يحفظها، أو لم يقرأها، ولم يسمعها، لكن لعوز الكمال في الإنسان. ويظنون بقلة معرفتهم — بل يعتقدون ذلك — أن من قرأ نوعًا من العلم، وشرع في أن (؟) من ذلك، أنه لا يجوز أن يذهب عليه مثل ما وصفنا من نسيان شيء، أو الإغفال عنه أو الغلط فيه. وهذا مما ليس ينكره أحد ممن تدرب في نوع من العلوم، أيِّ نوع كان منه. فأما الأميون والعاميون فإنهم يتوهمون — بل يعتقدون — أنَّ كل من نُسب إلى علم النجوم، فإنه لا محالة يعلم الغيب، وأن من نُسب إلى الطب فإنه يقدر أن يزيل كل مرض، ويشفي كل سقم.

أنواع العِلَل

وإنما العلل الواقعة لها ثلاثة شروط: علة واجبة البَرْء، وعلة جائزة البرء، وعلة مستحيلة البرء.

- **فأما الواجبة البرء:** فَكَحُمَّى يومٍ في أكثر الأمر، وصداعٍ حدث من حرٍّ شمس.
- **وأما الجائزة البرء:** فَكَحُمَّى عقدية أصابت إنسانًا قويَّ البدن خَصيبَه، ولم تسكن من جنس الحميات الخبيثة. فإن مثل هذه الحمى إذا عولجت كما يجب، وكيف يجب، بما يجب، فإنها تزول سريعًا؛ وإن لم تعالج، فكثيرًا ما زادت، وربما وقفت فلم تزد.
- **وأما المستحيلة البرء:** فمثل السرطان والجذام والبرص.

فالطبيب في أكثر الأمر مَلوم، وعلى أي حال؛ وأمَّا فيما يمكنه علاجه فلطول وقت المعالجة، وأما فيما لا يمكنه العلاج فلعجزه عن ذلك.

الرفق وحفظ السر في الطب

واعلم يا بني أنه ينبغي للطبيب أن يكون رفيقًا بالناس، حافظًا لغيبهم، كتومًا لأسرارهم، لا سيما أسرار مخدومه؛ فإنه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه من أخص الناس به، مثل: أبيه، وأمه، وولده؛ وإنما يكتمونه خواصَّهم، ويفشونه إلى الطبيب ضرورة. وإذا عالج من نسائه أو جواريه أو غلمانه أحدًا فيجب أن يحفظ طرفه، ولا يجاوز موضع العلة، فقد قال الحكيم جالينوس، في وصيته للمتعلمين — وَلَعَمْرِي لقد صدق فيما قال: على الطبيب أن يكون مخلصًا لله، وأن يغض طرفه عن النسوة ذوات الحسن والجمال، وأن يتجنب لمس شيء من أبدانهن. وإذا أراد علاجهن أن يقصد الموضع الذي فيه معنى علاجه، ويترك إجالة عينيه إلى سائر بدنها. قال: ورأيت من يتجنب ما ذكرتُ فكبر في أعين الناس، واجتمعت إليه أقاويل الخاصة والعامة. قال: ورأيت من تعاطى النساء فكثرت قالة الناس فيه، فتجنبوه، ورفضوه، وحرم الدخول على الملوك وعلى الخاصة والعامة. فَلْيَحذرْ المُتَطبِّب هذه الأمور كما حذرته إياها.

واجب المريض نحو الطبيب

ينبغي لمن يختص المتطبب لنفسه، من الملوك والأكابر والسوقة، أن يبالغ في تطييب قلبه بلطيف الكلام، وأن يرفعه فوق جميع مَن في مجلسه من خدمه وغيرهم، فإن هم إلا خدام جسم، والمتطبب خادم روح.

وقد كنتُ ذات يوم في مجلس بعض الملوك، وكان له متطبب اختصه لنفسه، فدخل علينا المتطبب، فغلط له الملك في القول، وقال: دعاك فلان الحاجب إلى داره فلم تجبه. فقال المتطبب: أيَّد الله الملك! الأصحاء يحضرون إلى الأطباء، ولا يستحضرونهم؛ إلا الملك.

فقال الملك: إنما كان لك ذلك قبل أن توسمت بخدمتنا. فأجاب المتطبب بجواب أعجب الملك والحاضرين، فقال: أيَّد الله الملك! ظننتُ أن خدمته تزيد في الرفعة وعظم القدر، لا في الضعة وخمول الذكر. ففهمه الملك، واعتذر إليه وأكرمه، وخلع عليه.

وأشفق من حول الملك به طبيبه، فإن كثيرًا من قرابته وخدَّامه يُسَرُّون بمرضه وموته، طمعًا لوراثة ماله أو ملكه، والطبيب جادٌّ مجدٌّ في حفظ صحته، مسرور بدوام عافيته.

ولا شيء أنكر لقلبه من مرض مخدومه؛ فإنه يريد أن يدفع عنه علته في أقصر لمة، وأسرع وقت، وأهون علاج. وإن لم يمكنه ذلك، فإن للعلل درجات أربعًا: ابتداءً وتزيُّدًا ومنتهًى وانحطاطًا.

وإن المخدوم إذا أحسن إلى من يختصه لنفسه من المتطببين، جدَّ ذلك المتطبب في حفظ صحته ومداراة علته. وقد صدق — لَعَمري — الحكيم أبقراط حيث قال: صانع الطبيب قبل أن تحتاج إليه. ومما يُضرب به المثل: عَمَلُه عَمَلُ مَن طَبَّ لِمَن حَبَّ.

ولا شيء أجدى على العليل، من أنَّ كون الطبيب مائلًا إليه بقلبه، محبًّا له.

نهي الطبيب عن المنكر

واعلم يا بني أن من المتطببين من يتكبر على الناس، لا سيما إذا اختصه ملك أو رئيس. وقد قال الحكيم جالينوس: رأيت من المتطببين مَن إذا داخل الملوك فبسطوه، تكبر على العامة وحرمهم العلاج، وغلَّظ لهم القولَ، وبسر في وجوههم؛ فذلك المحروم المنقوص. فدعا الحكيم إلى أضداد هذه الخصال التي ذكرها، وحث عليها.

وجوب علاج الفقراء

قال: وينبغي للطبيب أن يعالج الفقراء، كما يعالج الأغنياء؛ وهكذا يجب علينا أن نقتفي السُّنَّة التي سنَّها الحكيم.

نهي الطبيب عن العجب

قال: ورأيت من المتطببين من إذا صالح مريضًا شديد المرض فبرأ على يديه، دخله عند ذلك عجب، وكان كلامه كلام الجبَّارين؛ فإذا كان كذلك، فلا كان، ولا وُفِّق، ولا سُدِّد. وإنما نهى الحكيم عن هذه الخصال؛ لكي تُجتنب.

توكُّلُ الطبيب على الله تعالى

ويتَّكل الطبيب في علاجه على الله تعالى، ويتوقع البرء منه، ولا يحسب قوته وعمله، ويعتمد في كل أموره عليه. فإذا فعل بعد ذلك ونظر إلى نفسه وقوته في الصناعة وحذقه، حرمة الله البرء.

معرفة الحالة السَّوِيَّة قبل المرضيَّة

وينبغي أن تدخل على مخدومك كل يوم، وتقعد بالقرب منه، وتجس نبضه إن أشار بيده إليك، فإن من لم يجس نبض ما كان في حال صحته، لم يمكنه أن يحكم عليه وقت علته.

النهي عن كثرة الكلام

وإياك وكثرة الكلام في مجلسه في هذا العلم إلا إذا ابتدأك هو به، أو بعض ندمائه.

غذاء المريض

ولا تذكر على مائدته أن هذا الطعام يضر عضو كذا أو علة كذا، وإن كان رديء الخلط جدًّا، إلا بمقدار ما لا بد منه، مثل أن يجتمع على مائدته السمك والرايب، أو الجبن والبيض، أو أشباه هذه، مما لا يجوز أن يُجمع بينهما في وقت واحد البتة. ويجب أن تعلم كل يوم كميَّة طعمه، وكيفيَّة طبعه في قلَّته وكثرته، وهشاشته لذلك أو كراهته؛ فإن من علم مطعم إنسانٍ ومشربه، ونومه وسهره، وفراغه وشغله، وسائر أحواله من الباه وغير ذلك، فما أقل ما يقع في علاجه من الخطأ.

وينبغي أن تأمر له كل يوم أن يتخذ له من الغذاء ما تعلم أنه يكون مصلحًا لما تناول في أمسه من أغذية، دافعًا لما يُنتظر من مضرته. ومِلْ في ذلك إلى ما يشتهيه ميلانًا ما، فإن الطعام المُشتهى أوفق للأصحاء والمرضى مما لا يُشتهى، وإن كان أردأ؛ وقدر شرابه وكيفيته وكميته وترتيبه.

وإياك أن تحرِّم على الملوك، وعلى من ليس من عقلاء الرجال، ولا على الصبيان والنساء، شيئًا يشتهونه بمدة، لكن امنعهم منه يسيرًا يسيرًا، وحذرهم من الإكثار، فإن ذلك أحرى ألا يتناولوا منه في السر شيئًا كثيرًا، وتلاحقْ ضرر ما يحدث منه، فإن دفع مضار الأغذية جزء عظيم من أجزاء الطب في حفظ الصحة.

استخدام الدواء

وينبغي لك إذا ناولته شربةً أو دواء، أن تصيب منه بمشهده مقدارًا، فإنَّ ذلك أبعد من التهمة، وأقرب إلى الثقة، وأحرى بأن يعتمد عليك، وتفوض أموره إليك. وليس ذلك ما يجب في كل وقت، بل إذا كنت توليت أمر ذلك الدواء. فأما إذا تولاه بعض غلمانه أو صاحب شرابه، فليس ذلك بواجب عليك.

وقد كنت ذات يوم في مجلس بعض الأكابر، وأعطاه الطبيب شربة، فبَسَر وجهه، فقال بعض ندمائه: لم لا أصبت منها؟ فقال الطبيب: أَوَكُلُّ شربة أو دواء يحضر المجلس يجب على أن أصيب منه! إني إذن من عباد الله المتلفين! فقال له صاحب المجلس: صدقت، وأمر بتسليم مفاتيح بيوت الدواء، وبيوت الشراب إليه.

والنهي عن ذكر السموم لدى الأمير

وإياك وذكر شيء من السموم القاتلة بين يدى الملك، أو سوقه، وتقول: إني أعرفها، أو واقف على شيء منها، أو على ضررها، فهي بمعزل عن صناعة الطب. وليس يُحتاج إلى ذكرها ولا استعمالها، وترك ذكرها أصلح من ذكرها. وإن هو سألك عنها فلا تجب عن ذلك، ولا تشرع في ذكرها، وألقِ نفسك منها جانبًا.

وجوب تقريب الطبيب

ويجب على من استخدم الطبيب أن يقربه من نفسه، ويكلمه كما يكلم أخص الناس به، كيلا يحتاج الطبيب بينه وبين مخدومه إلى سفير، فإنه ربما يقع بالإنسان من العلل المُستحى، منها ما يحتاج الطبيب أن يأمر بعلاج في ذكره كراهة، مثل الشيافات والحقن.

فإذا لم يكن المتطيب مقربًا في فيمنعه الحشمةُ أو الجبن أن يشير عليه بذلك العلاج، فربما أدت حشمته منه إلى إتلاف نفسه. كما أني سمعت أن ملكًا أصابته علة للقولنج، فاحتاج الطبيب فيها إلى استعمال الحقنة، ولم يكن الملك سمع بوصفها، إذْ كان عاميًّا لم يشاهد العلماء؛ فأشار الطبيب عليه باستعمالها، فلما وصفها له ظن الملك — بقلّة عقله وكثرة جهله — أن ذلك باستخفافٍ من الطبيب، وتهاون بعلاجه. فغلَّظ له القول وقال: بمن ينبغي أن يُفعل ما وصفتَ؟! فخافه الطبيب على نفسه فقال: بي. أيد الله الملك! قال: أوَينفعني ذلك؟ فقال المتطبِّب: قد قيل: إنه ينفع؛ وترك علاجه، فتلف فيه.

وحكى هذا الطبيب أنه لو حقن لفاز ونجا. فلما لم يكن مقربًا من مخدومه حتى يمكنه أن يباسطه في الكلام، خافه وترك علاجه، وكان في ذلك هلاكه

نهي الطبيب عن السكر

وإياك ومعاقرة الشراب، إذا كنت معينًا لخدمة الملوك والأكابر، فإنه ربما احتاج إليك في وقتٍ، فتُصادف سكرانَ، فتصغر في عينه، ويقع في علاجك من الخطأ ما لم يمكنك تداركه إلا إذا أمرتك هو به. فأما إذا استعملته بنفسك، فبمقدار ما تحتاج إليه في حفظ صحتك، أو دفع علة ما.

ملازمة الطبيب للمريض بعد الدواء

وإذا أسقيته المسهِّل والمقيِّئ، فينبغي لك أن تلازمه، لئلا يخطئ في الطعام والشراب.

قيل: وفيه الذي يجب فيه؛ فإن من المترفين من تقدم بقلة ضميره وكثرة شرهه، على أن مرض سنة، لآفات كثيرة، فيصيب من الطعام، وقد بقي في معدته شيء من حنذة الدماغ، أو من رائحته، فيخلط ذلك بالطعام، ويعطيه طبعه، فصار الطعام مسهلًا.

وربما دام ذلك أيامًا، وجلب على صاحبه أمراضًا، وأصله مغص يقطع في بطنه. ولا يكاد يقبل العلاج إلا بكدٍّ شديد، وبعدَ جهد، وإتعاب نفس. وربما دام ذلك الإسهال أيامًا وشهورًا.

ضرر كتمان السر عن الطبيب

ومن أعظم الخطأ، أنه إذا فعل ذلك كتمه الطبيبَ، مريدًا بذلك دفع اللائمة عن نفسه. ومن أخطأ خطأً وكتمه، فقد جنى جنايتين، وارتكب خطيئتين. والطبيب لا يهتدي لعلاجه ما لم يفش إليه سره.

فمِن أجل هذا، يجب أن يلازمه الطبيب، من الوقت الذي يسقيه المسهل، إلى أن يستفرغ ويفرغ، فإن ذلك من أحزم الأمور، وأوكدها في حفظ الصحة، وبتر الأمراض والعلل، ودفع الملامة عنه وعن نفسه، بسببه.

وقد سَقيت — في بعض الأوقات — فتًى قريب السن من المترفين المسهِّلَ، فأخطأ في ذلك خطأً كتمنيه استحياءً، إذ كان [...اهقًا].

وكان قد قارب في الليلة التي شرب فيها المسهل، بعض [خط...] فأصابه بعقبه ضعف، ووجع في كِلاه. فلما فتشت عن حاله، أخبرني بعض خدمه بما فعل، فعالجته، فبرئ. وقد كنت قدَّرت، أنه لو لم يكن أخبرني هؤلاء، لطالت به المعالجة والعلة.

فصد المريض بعد معرفة حاله

وإذا أردت إخراج الدم له بالفصد، فيجب أن تجس نبضه، وتتفقد بوله، لا سيَّما إذا كنت قد اتصلت بخدمته منذ ريب.

فأما من امتدت به الأيام في الخدمة، وعرف عادة المخدوم، فإنه قد يمكنه أن يشير عليه بإخراج الدم، بغير هذين، من حمرة لون، أو در عرق، أو رُعاف، أو غير ذلك، مما يدل على غلبة الدم في كميته، أو رزانة في كيفيته.

واعلم أنه ليس لمن يلازمه الطبيب، لصحته، أو يعتاد علاج الخدمة أو عادة… من غير أن يكون غير مشار للطبيب في وقت صحته، وأيام سلامته، في اعتماد غذاء، أو إخراج دم، أو شرب دواء.

حتى إذا نزلت به علة، أو أصابته آفة، فحينئذ يفزع إلى الطبيب، فلم تره يمكنه أن يعرف من أحواله في ذلك الوقت، ولو كان من أمهر الناس، وأقدرهم على البحث والقياس؛ ولا سيَّما إذا كان ما أصابه علة حارة، لا تمهله، أن يستعد لصناعته، ويبحث عن أحواله، وما جرى عليه من عاداته.

ولذا قال الحكيم أبقراط: العمر قصير، والصناعة طويلة، والوقت ضيق. وإنما صار الوقت ضيقًا لأن الأوقات التي تستعمل فيها العلاجات الجزئية كل يوم لسيلان العنصر الموضوع للطب، وهو أبدان الناس.

وقد صحَّ لي في هذا الباب بالتجرِبة شيء عجيب؛ وذلك أنه كان لي صديق كثيرًا ما كان يختلف إلى ما عندي، وكان يعتريه في بعض الأوقات خُنَاق بَلْغَمِيٌّ.

فدخل عليَّ يومًا وقد احمر وجهه، وبرزت عروقه، مثلما يكون عليه أوجه السكارى. فسألته عن حاله فقال: كنتُ جالسًا في دُكَّان عطَّار أحدِّثه، فشقَّ نافجة مسك، وسحق منه شيئًا صالحًا على صلايته، فجاء إلى ما عندنا رجل في عقله بعض الخلل، يشترى منه الطيب. فلما اشتغل العطار بذلك، أخذ الرجل المئوف ما على الصلاية من المسك، ولم أكن أحفظ نفسي منه، فإذا أنا به وقد نفخه في أنفي بفمه على ما ترى.

ومكث عندي هنيهة، وقام وخرج، فخر في الطريق، وأخذته العلة التي كانت تعتاده على الأيام. فذهب به إلى داره صديق له، ودعا بمطبب غريب؛ لم يعرف حاله؛ فظن ذلك الطبيب أنه خناق دموي، ودعيت أنا.

فلما أنْ دخلت عليه، فإذا أنا بالمتطبب، وقد شمَّر عن عضديه، واستعد أن يفصده القيفالين، فنهيته عن ذلك، ومنعته من فصده. وعالجته من العلاج بما كنت عرفته؛ فبرأ. ولو فصده لعمل في إتلاف نفسه.

ورأيت مرة رجلًا أصابته علة؛ فجاء طبيبًا، فأمر له بدواء يستعمله على مر الأيام؛ فكان لعلته شافيًا. فأصابت هذه العلة بعينها رجلًا آخر؛ فعلَّمه الرجل الأول ذلك الدواء. وكان الرجل الثاني يعتريه الصرع، فكان كلما تناول منه يصرع بعقبه، غير أنه كان ينفع العلة التي أصابته. فجاني وشكا إليَّ فاستوصفته الدواء، فوصفه لي، فكان فيه بذر الكرفس، فألقيته منه. فاستعمله بعد ذلك، فكان لا يصرع، وينفعه نفعًا بينًا.

ويُحتاج في استعمال صناعة الطب إلى طول الملافاة؛ فإن من صاحب إنسانًا سنة، أعلم لطبيعته ممن صاحبه شهرًا. ويجب في ذلك أن يكون الطبيب قد أحكم الأصول، وقرأ الفروع؛ فإنه من غير هذين لا يصح له شيء، ولا يهتدي لأمر من الأمور في الصناعة؛ فعليهما فاعتمد.

النهي عن التجربة في المريض

ودع من يهذي به جُهَّال العامة، أن فلانًا قد وقعت له التجربة في غير علم يرجع إليه؛ فإن ذلك لا يكون، ولو كان من أطول الناس عمرًا، وما نفع له من علاج موافق، فهو من حسن الاتفاق.

فأعلى درجات هؤلاء، الذين ليسوا يرجعون إلى علم أصوله الصناعة، أنهم ينظرون في الكتب، فيستعملون منها العلاجات. وليسوا يعلمون أن الأشياء الموجودة فيها، ليست هي أشياء تُستعمل بأعيانها، بل هي مقالات جُعلت ليحتذى عليها، وتُعلَّم الصناعة منها.

ولو لم يكن من أمر التجربة إلا ما قاله الفاضل جالينوس لكفى: أنا أنهى جميع من استشارني في صناعة الطب أن يعالج بالتجرِبة.

وقد نهى عن ذلك المعلم الحكيم أبقراط، حين ابتدأ فقال: العمر قصير، والصناعة طويلة، والزمان جديد، والتجربة خطر. فقد صدق لعمري في قوله! وإني أنهى عن التجربة في صناعة الطب.

ورأيت رجلًا من المدعين، يعالج عليلًا أصابته صفراوية، فسقاه شيئًا يعقل لسانه، فعوتب في ذلك، فذكر أنه قرأ ذلك في كتاب يعالج هذا المرض.

وآخر يسقي عليلًا لورم صلب دموي كافورًا؛ فأضر به إضرار شديدًا.

ودخلت مرة قرية مجتازًا بها، فبقيت هنالك أيامًا. فرأيت شيخًا، كان بحضرة باب مسجده بالغداة قوارير الماء. فكان يأمر بأشياء كما يتفق له، ويخطر بباله، ويجري على لسانه.

فسألتهم عن حاله، فقالوا: إن له كتبًا كثيرة في الطب، وقد عرف طباعنا بالتجربة.

فقَتَل الشقي بعلاجه المنكر، من مدة ما كنتُ هناك عدادًا من الناس. فعجبت من غباوتهم وشقاوته، ومن جهالتهم وجرأته. ولو خليت المرضى والطبيعة، ولم تعالج ألبنة، خير لهم، وأعود عليهم، من أن يستشفى بمثل ذلك الطبيب.

ولو أن رجلًا استوعب مدة [عمره]، فإنه لا يصح له من التجربة أن الإسهال معالج بدلك الرأس بالخرق الخشنة فيستريح المريض، وأن السعال ربما يؤدي إلى السل، إن لم يلطخ الرأس بدواء الخردل، حتى [يسقط] وينفتح.

التحذير من أدعياء الطب

واعلم أن اللصوص وقطاع الطريق، خير من أولئك النفر، الذين يدعون الطب، وليسوا بأطباء، لأنهم يذهبون بالمال: وربما أتوا على الأنفس، وهؤلاء كثيرًا ما يأتون على الأنفس النفيسة.

وإن من اضطر إلى ذلك، لحاجة أو سد مجاعة، خير ممن هو مستغن عنه، يريد بذلك التشدق والسمعة، كي يقال: إن فلانًا يُرجع إليه في علم الطب.

وأكثر هؤلاء يُرجعونه إلى الزهد، وصيانة النفس.

ولو أمسكوا عنه لكان جزاءً لهم دينًا ودنيا، وآخرة وأولى، فإن من أصعب الأمور التحكيم على الأرواح بغير معرفة، والأمر بشيءٍ والنهي عن غيره من غير بصيرة.

وإن الواحد منهم ربما بلغ به الأمر من الصيانة أنه يذبح نفسه من غير أن يتكلم بين اثنين في شيء حقير من حطام الدنيا، كيلا يبوء من ذلك بإثم، ثم يخبط منهمكًا على وجهه في التحكم على أرواح الناس، من غير بحث ولا قياس، ولا أصل يبني عليه، ولا فرع يرجع إليه.

فبعضهم يفعله منتشيًا، وبعضهم يفعله محتسبًا. وقد يصح لمن أحكم الأصول من علم الطب في يوم واحد، من حال من يريد علاجه، إذا بحث عن ذلك، ما لا يصح لغيره في سنن كثيرة، من أصحاب التجارب.

وقد أخبرتك قبل أن الحكماء قد ينهون عن استعمال التجربة في صناعة الطب. وقد أعلمتك قصة صاحب الخناق البلغمي، والمتطبب الأجنبي؛ لتعلمَ أنَّ من يعتاد علاج إنسان ويعلم عاداته، أو يلازم أميرًا ويعرف

سيرته؛ قد يصح له من أحواله أشباه ما وصفتُ لك.

ولولا ما كان من أجل ما وصفنا، ما استخلص الملوك والأمراء لأنفسهم الأطباء، وآثروهم على جميع خدمهم، وأشركوهم في أموالهم ونعمهم وقدموهم على سائر خواصهم لأنه لا شيء أجل من العافية، ولا ألذ من حياة في سلامة.

تواضع الطبيب

واعلم أن التواضع في هذه الصناعة زينة وجمال، دون ضعة النفس؛ لكن يتواضع بحسن اللفظ، وجيد الكلام ولينه، وترك الفظاظة والغلظة على الناس.

فمتى كان كذلك، فهو المسدَّد الموفَّق. وكذلك أَمَرَنا بهذه الخصال المحمودة، التي أشرت بها عليك، الفاضلُ جالينوس.

وقد كنت يومًا في مجلس بعض الملوك، وكان له متطبِّب اختصه لنفسه، وقدمه على سائر من بحضرته، فأمرت له بدواء، وكان يحتاج إليه في ذلك الوقت، وكان في المجلس رجل من أقرباء الملك، له مكانة ومنزلة عنده.

فقال له المتطبب: ائتني بحقة كذا؛ فقام من مجلسه كارهًا، وهو يقول في نفسه: أرى كل نذل يحكم عليَّ حكمه على عبيده، فسمعه الملك فقال: إن من جوزت له أن يحكم على نفسي وروحي لست أنهى أن يحكم على غيري، ولو كان أقرب الناس إليَّ، وأكرمهم عليَّ، فاستبشر بذلك الرجلُ، وطابت نفسه بقول الملك.

وعالجت في بعض الأوقات ملكًا، وكان لي عنده مكانة ومنزلة، إذ كان الرجل بنفسه فاضلًا. فأصابه ورم حار؛ فقصدته واستكثرت من إخراج الدم؛ إذ كان يجب إخراجه إلى حالة العشا، فأصابته عشية صعبة، فهولته جدًّا.

فجعل مَن حوله من خواصه وخدمه يبكونه، وأهابهم ذلك، وأنا أعالج العشا بما يجب، لا أكثرت بقوته وهوله.

فلما أفاق رأى بعض خدمه يبكي، وبعضهم يشد النظر إليَّ، فقال لي: إنه لم يكن لي برء العشا، وما دام معي شيء من عقلي يهتم، ولا فكر إلا الإشفاق عليك من أن ينالك بعض خدمي بجهالته بكلمة باردة. وقد

وثقت منك أنك لو لم تعلم أني محتاج أن أصير من إخراج الدم إلى العشا، لم يخرج ذلك. ولست أكلفك بفصدي بعد اليوم بحضرتهم، بل في الخلوة.

وتخلص بذلك الفصد من علل كثيرة، قد أشرف عليها، وحفظت صحته بإذن الله تعالى، مدة مقامي معه، من أوجاع شتى كانت تصيبه على الأيام، لأنه لم يكن يأكل ويشرب، ولا ينام ولا يسهر، ولا يتقاضى، ولا يستحم؛ إلا بمشورتي وإذني، وبمرأى مني.

وكان في أثناء ذلك مطيعًا لي مجيبًا إلى العلاج، في جميع ما أشرت به من ذلك عليه. وكذا يجب أن يكون الرئيس إذا أراد الانتفاع بعلم الطب.

وإن الطبيب بمثل هذا يسعد، وهو يسعد باستخدامه إياه.

ولو لم يكن لصناعة الطب وللأطباء من الفضل إلا ما أنا ذاكره، لكانت فيه كفاية.

فضل الأطباء

فإنه قد اجتمع لهم خمس خصال لم تجتمع لغيرهم:

- **الأولى:** اتفاق أهل الملل والأديان على تفضيل صناعتهم.
- **والثانية:** اعتراف الملوك والسوقة بشدة الحاجة إليهم؛ إذ هم المفزع والغياث، حين لا ينفع عدة ولا عشيرة.
- **والثالثة:** مجاهدة ما غاب عن أبصارهم.
- **والرابعة:** اهتمامهم الدائم بإدخال السرور والراحة على غيرهم.
- **والخامسة:** الاسم المشتق من أسماء الله تعالى.

ولو لم يكن من فضل الطبيب، إلا أن الإنسان ربما يتشوق إليه حين يسأم أكرم الناس عليه، فأخصهم لديه؛ فإنه في العلل الصعبة ربما كره الإنسان لقاء أهله وولده، ويشتاق إلى الطبيب، ويتروح برؤيته، وتطيب نفسه بحضوره ومشاهدته — لكان فيه مندوحة عن غيره.

وحكى لي غير واحد من المرضى: إنه يجد في نفسه راحة عند دخول الطبيب عليه، وكونه عنده، ما لا يجد في غيره من الأوقات.

لا كهانة في الطب

وإياك أن يغلطك المخرقون المهرون على الناس، بحضرة مخدومك، فيكلفونك استخراج أشياء ليست من صناعة الطب، كما يعتادها الكهنة؛ أنه قد يمكن المشاهد أن يعرف جميع ما بالعليل من أمره، إذا نظر إلى ما به، أو جس نبضه، لا بل يعرف ما أكل من قبل ذلك، وراود من سائر أموره، والفرق بين الأبوال، وهذا من أعظم الكذب والباطل على صناعة الطب.

ولهؤلاء المخرقين — أخزاهم الله تعالى — في ترويج حيلهم عند العامة، أنواع من الحيل، وزرق لطيف جدًّا. وقد شرحنا هذه الأمور في مقالتنا التي ألفناها في هذا المعنى.

فربما أمر المخرق مرافقه أن يجعل بدل البول في القارورة ماء التين، أو ماء نقع المشمش، فيرده إليه بحضرة من الناس فيغضب لذلك المخرق، ويتناوله ويشربه.

وربما يدفع إليه ماء [...] في قارورته بول الشاة بمرأى من العوام؛ فيقول يحتاج إلى زيادة [...]، فيصدق ذلك كثير من أهل العقل والتمييز؛ فضلًا عن سواهم.

وإنما صرت بحيث لا يخفى عليَّ شيء من هذه الأمور؛ لأني كنت في حداثتي أتعاجل العزائم والمخاريق، فصار لا يخفى عليَّ أشر وجوهها.

وقد رأيت من هؤلاء أشياء ذكرت بعضها في تلك المقالة، التي بينت فيها طرفًا من حيلهم.

أمَّا أنا فقد دفعت إلى هذا النوع غير مرة، من أقوام نظرت في بولهم، أو جست نبضهم. فلما رأوني ألح عليهم في المسألة عما فعل المريض وأكل وأصابه في علته، وغير ذلك من الأعراض والدلائل والعلامات، من النوم والسهر وكيفية الوجع، رأيتهم قد تبين في وجوههم ضد ما كانت صورتي عندهم، بأن لان قولهم لي، وأعرضوا عني.

ومنهم من أظهر ذلك لي، غير مستحي مني بل مصرحًا بالقول من: إنك كنت عندنا بخلاف ما نجدك؛ إذ كان في نفوسنا أنك إذا نظرت إلى ما بنا، وجسست نبضنا، أمكنك أن تخبرنا بجميع ما فعلنا في أيام علتنا، وما يجد من الآلام على كنهها.

ولم ينجع كلامي فيهم. إن من وصفهم غير مدرك لهذه الصناعة، لما قد تمكن في نفوسهم من مخاريق الهرابين وحيل المخرقين.

وإن كان قد يمكن الماهر أن يعتبر عن بعض ما بالعليل، فإنه لا يمكنه الإخبار عما فعله البارحة، وعما أكله على كنهه. فإن كانت صناعة الطب ما هي محصورة في كتب الحكماء من اليونانيين والهند أيضًا، فليس ولا في واحد من هذه الكتب ما ادعوه من مثل هذه الأشياء، أنهم يلزمون الزوايا؛ ويروجون صناعتهم وحيلهم على أهل ضعف العقل من الرجال والنساء [...]، وآراؤهم في استخدام من يخدمهم متضاربة.

فمنهم من يريد طول المُقام عنده، ومنهم من يكرهه. فإذا خففت على هؤلاء في الخدمة، كان ذلك عندهم ضربًا من الخدمة. فإن أمرك إزاءهم بالتنبؤ، وأقبل عليك بوجه طلق، خير من أن يثقل رأسه عليك، أو يصد بوجهه عنك.

واعلم أنك إذا تملكت هذه الخصال، ولازمتها في سائر الأحوال، كنت حريًّا بأن يخصك الملوك والسوقة، ويقبل عليك الخاصة والعامة. ولا تخلو في خلال ذلك من ثواب وذخر، وجزيل مثوبة، وحسن ذكر.

وفيها أعلمتك من هذا الباب، بهذا القدر ما فيه كفاية، وغنًى لمن نظر فيه، وتدبره بعقله.

والله تعالى يوفقك للسداد، فتسلكَ كل طرق الرشاد، بمَنِّه وَجُوده، ولواهبِ العقلِ الحمدُ بلا نهاية، كما هو أهله ومستحقه.